

## مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فقد أصبحت دراسة بعض الظواهر الجزئية التي تهتم بالنص الشعري من وجهة معينة فلسفية مثيولوجية وأسطورية، شائعة وكثيرة في عصرنا الحاضر ولعل أهم هذه الجزئيات التي صوبت الأنظار إليها من قبل الباحثين هي مسائل الزمن ودلالاته، والمكان وأنماطه، والأثر الحضري وبعض المظاهر الأسلوبية التي تقوم على أساس استنطاق النص بلا عودة إلى مؤلفه وظروفه التناسخ والسيمائية وما هو معلوم من بين تلك الجزئيات، فالتناص يهتم بعلاقة النص الذي هو بصدد الدراسة مع المرجعيات الأخرى التي شكلته، كالدينية والأدبية والتاريخية، والسيمائية هي نظام العلاقة التي تتحد كجزئية مع غيرها من البنى التركيبية والدلالية والصوتية لتشكيل النص الأدبي (الشعري وغيره).

ولما كنت بصدد البحث عن موضوع لدراستي وجهت عنايتي نحو إحدى هذه الجزئيات فكان الوقوع على الظاهرة المكانية لعدة أسباب لعل أهمها:

١ - إن هذا الموضوع لم يدرس في الشعر الأندلسي في الحقب التي اخترتها (من الفتح حتى سقوط الخلافة) ولا يخفى على الكثير أهمية هذا، بسبب كثرة الدراسات التي تتعلق به من جهة، ولعدم وجود ما يميز هذه الدراسات من النواحي العملية والفكرية من جهة أخرى. فالكثير منها متداخل مع بعضها،

والكثير منها أصبحت أسماء معروفة لا تحتاج إلى تأويل، وباتت نتائجها متواضعة بالموازنة مع ما وصلت إليه الدراسة النقدية الحديثة.

٢- أهمية الأندلس-كمكان- قبل كل شيء على الشاعر ونتاجه وهذا ما لا يختلف عليه اثنان فهي مكان جميل حباها الله بوافر من الصفات جعلته جنة في نظر أهله وساكنيه، وهذا ما يدفع الباحث نحو نتائج موضوعية مطمئنة.

٣- ما يشكله المكان من أهمية بارزة ومؤثرة في بنية النص الشعري، وتعود تلك الأهمية لدلالاته الكثيرة تبعا لكثرة أنماطه وأنساقه وهذا ما جعل النص الشعري الأندلسي مفتوحا أمام الباحث لتوضيح تلك الدلالات. والوقوف على هاتيك الأنماط والأنساق.

فضلاً عن أهمية هذه الدراسة من حيث النواحي الفنية والتركيبية والصوتية في النص الشعري الأندلسي، وهي أشياء مهمة تجذب الباحث نحوها، ولعل ما وجدناه سيكشف بصدق ووعي عن هذه الأهمية.

وأما عن منهجية الرسالة فكانت في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

فالتمهيد تضمن الحديث عن المكان بمعناه اللغوي ثم بمعناه الفلسفي بشكل مختصر وبسيط يمهد الوصول إلى مضمون الرسالة، ثم الجزء الآخر من التمهيد فكان عن المكان في النص الأدبي عبر العصور من الجاهلية حتى العصر العباسي، فهذه العصور شهدت تطورا في الأمكنة، وشهدت عدة شعراء نظروا إلى المكان كلا حسب فكره ومشاعره وأحداثه، فضلا عن أهمية المكان والغرض الشعري ودلالات هذا المكان وهذا أمر من شأنه أن يمد فصول الدراسة بما هو نافع ومفيد كما أنها تيسر عمل الموازنة بين النصوص التي استقيناه من هذه العصور، وبين ما سنحلله ونقف عنده من نصوص شعرية أندلسية.

تضمن الفصل الأول فاعلية المكان في الغرض الشعري، فهذه الفاعلية

جديرة بالاهتمام فقد تشكل المكان مع غرض الغزل والمديح والرثاء والفخر، وقد ربط البحث من خلال المكان بين النص الشعري وبين الشخص الممدوح وهكذا مع مقدمات القصائد الغزلية وقصائد الرثاء والوصف، وكل هذه الارتباطات لها عناية فائقة بالمكان، أو بأحد أنماطه أو مدلولاته.

وأما الفصل الثاني فقد تناول موقف الشاعر الأندلسي من المكان، حيث إن للمكان وطأته وإرهاصاته التي لا تخفى على الكثيرين، وبالتالي فهي غير خافية على الشاعر الحاذق ما أحس اغترابا أو ألفة أو عداء. فكان هذا الفصل يحوى مباحث ثلاثة هي المكان المحبب (الأليف)، والمكان المرفوض (المعادي)، والغربة المكانية والحنين، إذ رأيت أنها تنبثق من نصوص الشاعر الأندلسي التي وضع الباحث يده عليها والتي شكلت مادة جيدة في استنطاق الظاهرة المكانية، وتبين أهميتها، وتكشف مدلولاتها.

في حين جاء الفصل الثالث ليحتضن الدراسة الفنية وليحوى كل تلك المناحي التركيبية والصوتية التي تكلمنا عنها في التمهيد، وليبرز أثر المكان على النص الشعري الأندلسي من الناحية الفنية، كما نعتقد أننا برزنا أهميته في النواحي الموضوعية، واشتمل الفصل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: المكان واللغة الشعرية وفيه تم الحديث عن المكان ودوره في تشكيل النص الشعري منطلقين من حيثيات أن المكان بنية حية متحركة وجزء أساس من بنية العمل الفني.

أما المبحث الثاني فقد ضم الحديث عن المكان والصورة وشمل الحديث عن ماهية الصورة المكانية ووسائل تشكيلها من خلال أساليب البيان، وكان الحديث مهتما بإبراز الجوانب الفنية للنص الشعري الأندلسي الذي يوثق الظاهرة المكانية، وعم الاهتمام بهذه الجوانب الفنية أكثر من النظر العلمي، أو البحث في زوايا فكرية لا تهم البحث بل تساعد على إطالته بلا جدوى أو فائدة.

وانصبت دراسة الباحث في المبحث الثالث على الظواهر الصوتية استكمالاً للجوانب الفنية للفصل والدراسة، وقد وقف الباحث عند الإيقاع الخارجى والمتمثل بالوزن والقافية، والإيقاع الداخلى والمتمثل بالتكرار والجناس والترصيع والتضاد، فكلما وثقت الظاهرة المكانية وبينت أثرها، كلما تركت إيقاعاً مؤنساً للشاعر الأندلسى الذى استخدمها استخداماً واعياً وجدياً.

أما الخاتمة فكانت خلاصة ما أفرزه البحث من نتائج، ومن ثم لا بد من الإشارة إلى المصادر التى استقى منها البحث مادته العلمية والفكرية فهى كثيرة ومتنوعة يمكن إدراجها تحت الشعب الآتية:

الأولى: الدواوين والمجموعات الشعرية وهى كثيرة منها ديوان الغزال (ت: ٢٥٠هـ) وديوان ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) وديوان ابن هانئ (ت: ٣٦٢هـ).. الخ.

والثانية: الطبقات وكتب التراجم ومنها جذوة المقتبس للحميدى، وبغية الملمس للضبى، والذخيرة لابن بسام نفع الطيب للمقري... وغيرها.

ثم الرسائل والأطاريح الجامعية، ففيها الكثير من الطروحات النقدية والعلمية ولا سيما تلك التى تختص بموضوعنا-المكان- فقد كان لها فضل السبق فيما تضمنته من معلومات وتوصلت إليها من نتائج فضلاً عن البحوث والمقالات ففيها الشعر المجموع، وفيها الدراسة الفنية المبسطة، ومنها النظرة الموضوعية الدقيقة.

وبعد: فأرجو أن يكون هذا الجهد مقبولاً ومحموداً ولا يسعنى فى نهاية هذه المقدمة إلا أن أوجه الشكر الجزيل، والامتنان الكبير لأستاذى ومشرفى د. محمد شهاب العانى، لما أولانى من رعاية كريمة، وعناية عظيمة سهلت مسيرة البحث ووصوله نحو الخير والصواب، فجزاه الله عنى وعن أهل العلم خير الجزاء.

ولى فى ملاحظات أساتذتى أعضاء لجنة المناقشة وتصويباتهم ما يقوم هذا البحث ويوصله إلى بر الأمان خاليا من الهنات والسقطات، فأرجو من الله- سبحانه- أ، يشملهم بعنايته الربانية ورحمته التى وسعت كل شيء، والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والعمل، إنه سميع الدعاء.

obeikandi.com

التمهيد

# مفهوم المكان

obeikandi.com

## (١) المعنى اللغوي للمكان.

وردت لفظة المكان في المعاجم اللغوية بمعان ودلالات متقاربة فيها إشارات واضحة وصریحة بأن المكان هو الموضع<sup>(١)</sup>، وهو ((مكان الإنسان وغيره ولفلان مكانة عند السلطان أى منزلة ورجل مكين من قوم مكناء))<sup>(٢)</sup> والجمع أمكنة كقذال وأقدلة، وأماكن جمع الجمع<sup>(٣)</sup>.

ولعل ورود هذه اللفظة في المعاجم اللغوية هي التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم وفقا لسياق التعبير القرآني<sup>(٤)</sup> فجاءت بمعنى الموضع أو المستقر، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾<sup>(٥)</sup>. أى اتخاذها مكانا نحو الشرق، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾<sup>(٦)</sup> وجاءت هذه اللفظة مجازا بمعنى المنزلة<sup>(٧)</sup> في عدة آيات من كتاب الله، منها قوله

(١) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٨هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ٦/ ٢١٩١، لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الأفریقی (ت: ٧١١هـ)، بيروت، (د.ت)، ١٣/ ٤١٤، محيط المحيط، المعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت (د.ت)، مادة (مكن)، ٢/ ١٩٩٧م.

(٢) جمهرة اللغة، لابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، ط (أوفسيت)، مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٥ هـ مادة (مكن)، ٣/ ١٧١.

(٣) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٥٢م، مادة (مكن)، ٤/ ٤٧٤، تهذيب اللغة، الأزهرى محمد بن أحمد بن طلحة (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: على حسن هلالى، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د.ت)، (مكن)، ١٠/ ٢٩٢.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقى، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٨٨م، ٦٧٢.

(٥) سورة مريم، الآية ١٦.

(٦) سورة ق، الآية ٤١.

(٧) ينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة، ٩٧٠م، ٢/ ٥٤٤.

تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> أى استبعده مكانه بدلا منه <sup>(٣)</sup>.

## (٢) المعنى الفلسفى للمكان.

تناول الفكر الإنسانى الظاهرة المكانية قديما وحديثا وأدرك الإنسان أثر المكان فى حياته، ودوره الفاعل فى رسم العلاقة بينه وبين العالم المحيط به.

فعند القدماء تجسد المكان واتخذ طابعا ميثولوجيا <sup>(٤)</sup> ((ينقسم إلى ثلاثة عوالم رئيسية، الماء، الأرض، والعالم السفلي، وهى مأهولة بالآلهة والبشر والأموات على التوالي)) <sup>(٥)</sup> وأخذت هذه الرؤية تتطور مع تطور الفكر البشرى من خلال التعامل القائم بين الإنسان والظروف والأحداث التى تنتاب ذلك العالم.

فى حين أن بواكير معرفة هذا المصطلح كانت عند أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) إذ عدّه الحاوى للأشياء <sup>(٦)</sup> وأخذ بعدا أكبر فى جعله (ما يحوى ذلك الشيء، ويميزه ويحدّه ويفصله عن باقى الأشياء) <sup>(٧)</sup> وجاء أرسطو ليرى بأن لكل جسم مكانا

(١) سورة مريم، الآية ٥٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٧٨، وينظر: سورة المائدة، الآية ٦٠.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام عبدالله بن أحمد النسفى، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٨٩، ٢/٧٨٥.

(٤) الميثولوجيا: هى مجموعة من الأساطير والعادات الدينية والعلمانية التى تسود مجتمعا من المجتمعات، ينظر معجم العلوم الاجتماعية، إعداد نخبة من الأساتذة العرب، مطبعة الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٥، ٥٨٣، وينظر: معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مجدى وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ٣٩٨.

(٥) عالم الزمان، المكان، العدد، عند قدماء العراقيين، زهير محمد حسن، مجلة آفاق عربية، بغداد، ٨ع، ١٩٨٤، ١٠٧.

(٦) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، الكويت، ١٩٧٥، ١٩٦.

(٧) نظرية المكان فى فلسفة ابن سينا، تأليف: حسن مجيد العبيدي، مراجعة وتقديم: الدكتور عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧، ط١، ١٩.

خاصا يشغله<sup>(١)</sup>، وعرفه بأنه (نهاية الجسم المحيط)<sup>(٢)</sup> وعند أقليدس (٣٠٠-٢٤٦ ق.م) هو ثلاثى الأبعاد (الطول، العرض، العمق)<sup>(٣)</sup>.

أما فى الفلسفة العربية فقد أشار الكندى (١٨٥-٢٥٢هـ) إلى أن المكان موجود ولا يمكن إنكاره<sup>(٤)</sup>. وعرف المكان بأنه (التقاء أفقى المحيط والمحاط به)<sup>(٥)</sup> وسار الفارابى (٢٧٥-٣٣٩هـ) على منوال الكندى مؤكداً أن المكان موجود بَيِّنٌ، ولا يمكن إنكاره إذ لا يمكن أن يوجد جسم من دون مكان خاص به<sup>(٦)</sup>. وذهب ابن الهيثم (٣٥٤هـ-٤٣٠هـ) مؤكداً (أقوال من قال: إن المكان هو الأبعاد)<sup>(٧)</sup>.

وفىما يخص الدراسات الحديثة فقد جاءت على رأسها دراسة جاستون باشلار فى كتابة (جماليات المكان)، ومجمل رؤياه فى هذا الكتاب أن الإنسان دون المكان لا سيبا البيت يصبح كائناً مُفْتَتاً لا استقرار له<sup>(٨)</sup>.

وبعد هذه النبذة فى عالم الفلسفة نجد أن المكان قد اتضحت معالمه ووجوده ولا يمكن إنكاره، وهذا الخلاف فى مفهوم المكان - فلسفياً - عائد إلى تعدد الدراسات الفلسفية وكثرة مناهجها وأقسامها ومن ثم فإن مفهوم المكان يتحدد تبعاً لطبيعة الدراسات ومنهجها.

---

(١) ينظر: تيارات فلسفية معاصرة، على عبد المعطى محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٤، ٢٩٠.

(٢) الطبيعة، أرسطو طاليس، حققه: عبدالرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ٣١٢/٤، م.

(٣) ينظر: دراسات ومذاهب، د. محمد عزيز نظمى سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٨، ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) ينظر: رسائل الكندى الفلسفية، حققها وأخرجها: د. محمد هادى أبو ريدة، طبعة القاهرة، ١٩٥٣، ٢٦/٢.

(٥) المصدر نفسه: ١/١٦٧.

(٦) ينظر رسائل الفارابى فى الحكمة، طبعة حيدر آباد الدكن (١٣٢٩هـ)، ٩٩.

(٧) نظرية المكان فى فلسفة الحسن بن الهيثم الطبيعية، نعمة محمد إبراهيم، مجلة آداء المستنصرية، ع١٢، ١٩٨٥، ٥٢٦.

(٨) ينظر: جماليات المكان، تأليف: جاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، يصدر عن مجلة الأعلام، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ٤٥.

### (٣) المكان عبر العصور الأدبية

عرف الإنسان العربي بحبه للأرض وارتباطه بها وحنينه لكل مكان تركه، وهذه السمة نلمس آثارها لدى الشاعر العربي بشكل كبير، فجاءت أهمية المكان لكونه (حقيقة معاشة، يؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه)<sup>(١)</sup>.

وفي شعرنا العربي نجد هذا الارتباط بالمكان منذ عصر ما قبل الإسلام فكان الوقوف على الأطلال سمة بارزة لدى الشاعر الجاهلي وعنصر لا غنى عنه بل (هو جزء من كيان عضوي كلى يخضع لمطلقات القصيدة الكلية ولبنيتها)<sup>(٢)</sup>.

وجاءت أهمية المكان في هذا الشعر من هذه الظاهرة وأصبحت مستهلا وباعثا من بواعث أصالة القصيدة العربية، بل وبنية من أبنيتها التي عدت أساسا لتركيب القصيدة العربية للعصور التي تلت هذا العصر.

وكانت هذه الأماكن قد شكلت مجموعة مثيرات دعت إلى إثارة العواطف وتصوير انقلاب الحال والعودة إلى الماضي الضائع وإثارة الإحساس بعنف تجربة الحرمان من الاستقرار.<sup>(٣)</sup> فنجد الشاعر باكيا الذكريات الخالية بمرارة وألم تارة، واصفا تلك الأماكن الدارسة تارة أخرى، وكلا الأمرين يعكس لنا الاضطراب النفسي والأيديولوجي لدى الشاعر العربي. فهذا امرؤ القيس استوقفته الديار فحنَّ إلهيا وبكى عليها حين قال في معلقته الخالدة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل  
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) جماليات المكان، مجموعة من الباحثين، عيون المقالات للنشر، دار قرطبة، ط٢، ١٩٨٨م، ٦٣. كتبت رسالة ماجستير تحت عنوان (المكان في الشعر العربي قبل الإسلام) للباحث حيدر لازم مطلق، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٧م. تناول فهيا خصوصية المكان ومظاهره عند الشاعر العربي قبل الإسلام. ينظر: ٣٤-٨٢. وفي الفصل الثاني تناول دلالات المكان. ينظر: ٩٩-١٣٩.

(٢) الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٣م، ٥٦.

(٣) ينظر: شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دراسة تحليلية، د. محمود عبدالله الجادر، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م، ٢٤٣، ٢٤٢.

فتوضح فالمِقرأة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال<sup>(١)</sup>

فجدلية الارتباط بين الذات والمكان هي ما تقوم عليه هذه المقدمة فهما متداخلان في نسق سياقي واحد، وشكل وقوفه على تلك الأماكن عودة إلى الماضي، وإلى أيام الصبا فكانت هذه الأماكن باعثا لذكرى تلك الأيام وذلك الملك الضائع، فالمكان هنا المنفذ الوحيد للشاعر للهرب نحو كل ما هو جميل، والمثير الذي يولد كل هذه الإحساسات بل ويوثقها ويكسبها صدقا في العاطفة وعظمة في المشاعر ودقة في التعبير.

واتخذ عنتره بن شداد العبسي من المكان أيضاً منفذا عاطفيا يلج من خلاله إلى وصف المحبوبة جاعلا منه بؤرة الحدث، ومركز الحدث فهو القائل:

دارُ لآنسةٍ غَضِيضٌ طَرَفُهَا طَوْعَ العنّاقِ لذِيذةِ المتبسم<sup>(٢)</sup>

ومثلما هو منفذ عاطفي ووجداني للشاعر فهو دافع للغربة، وإثارة مشاعر الشوق، وعواطف الحنين إلى ديار الأهل والأحبة، يقول عنتره:

حُييت من طلل تقادم عهدِه أقبى وأقبى بعد أم البيثم  
شطت مزار العاشقين فأصبحت عسرا على طلابك ابنة مخرم  
كيف المزار وقد تبرع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم<sup>(٣)</sup>

فهنا غربة مكانية قاسية ألت بالشاعر وتركته في أحضان الشوق والحنين وهذا الحنين مرتبط بالمحبة، وشكل المكان باعثا من بواعث الغزل والحنين، لأن المكان تتمحور دلالاته وتبنى وظيفته في الشعر من خلال الأشخاص (المرأة، الممدوح، المرثي) كما ترتبط دلالاته ووظيفته بالأحداث وتغيرها.

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بمصر، ١٩٥٨م، ٨.  
(٢) ديوان عنتره، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠م، ٨٩.  
(٣) المصدر نفسه: ١٨٥-١٨٦

وقد ضمن الشاعر زهير بن أبي سلمى المكان كل معانى الألفة والحياة ورأى فيها الأنيس الوحيد بعد غياب الحبيب فهو القائل:

قف بالديار التى لم يعفها القدم      بلى وغيرها الأرواح والأيمم  
لا الدار غيرها بعد الأنيس ولا      بالدار لو كلمت ذا حاجة صمم  
داراً لأسماء بالعمرين ماثلة      كالوحي ليس بها من أهلها إرم<sup>(١)</sup>

فالشاعر استوحى ألفته من الدار بعد غياب الحبيب وأصبحت أنيسه الوحيد.

وعكس المكان عند الشاعر الجاهلى صعوبات الحياة التى عاشها وقسوة الظروف الطبيعية التى عرفها، فكانت حياته حافلة بالمخاطر والصعاب ما لبث أن دونها فى شعره، وأبان عن تجربته المعاشة بتجربته الشعرية.

فهذا ليبد بن ربيعة العامري يقول:

وأقطع الخرقَ قد بادت معالمه      فما يحسُّ به عينٌ ولا أثر<sup>(٢)</sup>

فهو يسير فى مكان مجهول المعالم، مشتتاً ضائعاً، والذات تبحث عن نفسها وعن وجودها فى هذا الوسط المكانى دون جدوى، لا تدرى ولا تعرف إلى أين؟ وكيف.... ولماذا؟ ويبقى المكان المثير لهذه المشاعر.

ونجد أن المكان قد جسد مظاهر العدائية فتذمر الشعراء وأخذوا يصرفون العنان إلى أماكن أخرى فهذا قيس بن الخطيم يقول:

وما بعضُ الإقامةِ فى ديارٍ      يكونُ بها الفتى إلاَّ عناء<sup>(٣)</sup>

وتثير الأطلال والأحزان والآلام لدى الشاعر وتمد الشاعر بخزين (مثقل

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى (ت: ٢٩١هـ)، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤، ١٤٥.

(٢) ديوان ليبد بن ربيعة العامري، تحقيق: إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م، ٦٦.

(٣) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ١٥٣.

بالذكريات، وفيه دائما صلة تشد الشاعر إلى ماضى حبيب إليه<sup>(١)</sup> فهذا النابغة حين رأى دار الحبيبة بعد أن أقوت وأضحت خالية من الأنس أحس بالتمزق والضياع والوحشة فذهب قائلاً:

يا دار مية بالعلياء فالسند      أقوت وطال عليها سالف الأبد  
وقفت فيها أصيلاً كى أسائلها      عيت جوابا وما بالربع من أحد<sup>(٢)</sup>

وفي تجربة الصعاليك نجد للمكان بعد آخر، فالمكان (الصحراء) بالنسبة لهم دار إقامة، فكان له الأثر السلبي والإيجابي في الوقت نفسه على حياة هؤلاء الصعاليك، أما الجانب السلبي فتمثل بالنظرة العدائية للمجتمع بعد أن عانوا من الظلم والاضطهاد والتشرد من قبل قبائلهم والتي ألقت بهم في غيابات الصحراء المترامية الأطراف، والجانب الإيجابي تمثل في كون هذا المكان - الصحراء - قد خلق منهم رجالاً أقوياء يمتازون بالشجاعة والصبر، لأن حياة الصحراء (تربى في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة، كبرياء الرجال الأحرار)<sup>(٣)</sup> فهذا تأبط شرا يألّف المكان وما فيه من الوحوش حين قال:

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه      ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا  
رأين فتى لا صيد وحش يهمه      فلو صافحت أنسا لصافحنه معا<sup>(٤)</sup>

أما الشنفرى فهو الآخر يصرخ صرخة تحد في مواجهة الصعاب حتى يجعل من وحوش الصحراء أهلاً له فهو القائل:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم      فإنى إلى أهل سواكم لأميل  
ولى دونكم أهلون سيد عملس      وأرقت زهلول وعرفاء جيال

(١) شعر الوقوف على الأطلال، د. عزة حسن، دمشق، ١٩٦٨م، ١١٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٥٣م، ٣٠.

(٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ٧٣.

(٤) ديوان تأبط شرا وأخباره، تحقيق: على ذو الفقار، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٤م، ١١٥.

همُّ الأهلُ لا مستودع السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجانى بما جر يخذل<sup>(١)</sup>

خلاصة القول أن المكان كان باعثاً من بواعث قول الشعر وجسد دلالات مختلفة لدى الشاعر الجاهلي فمثل الألفة والعدائية والغربة والحنين أما الغرض الشعري فكان مقترنا به فلا تذكر الأطلال إلا وتذكر المرأة وكأنها شيئان متلازمان أحدهما مكمل للآخر.

أما في عصر صدر الإسلام فقد كان ظهور الإسلام حدثاً كبيراً في حياة العرب، ولا بد لهذا الحدث أن يؤثر بالشعر لكونه لسان حال الأمة في تلك الحقبة، ومن مظاهر هذا التأثير اختلاف رؤية الشاعر تجاه المكان، فأصبحت رؤية مشحونة بتيار إسلامي وأخذ الشاعر يلهج في ذكر الأماكن المقدسة بعيداً عن أماكن اللهو والغزل والمجون وربما كان مرد ذلك إلى (توارى الشاعر خجلاً وآثر الانزواء حياءً أمام دوى الدعوى الجديدة، وحيال سلاسة أسلوب كتابها العزيز)<sup>(٢)</sup> وأصبح الأمر مختلفاً تماماً بعد مجيء الإسلام (وصار الذى يقول الشعر أو يخطب في المجمع أو يتحدث في المجالس لا ينطق إلا بحذق ولا يقول إلا بميزان فلا يتلفظ بهجر مزر أو أدب معيب أو كلام هزيل أو بيان مرذول)<sup>(٣)</sup> وصدى هذا الحدث واضح في أشعار حسان بن ثابت رضى الله عنه حين قال:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهده منير وقد تعفو الرسوم وتهمدُ  
ولا تنمحي الآيات من دار رحمة بها منبر الهادى الذى كان يصعدُ

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب، الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ، ١٣-١٧.

(٢) الأدب العربي في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١٩٧٤م، ٩٢.

(٣) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١٩٨٠م، ٤٢.

وواضح آيات وياقى معالم  
بها حجرات كان ينزل وسطها  
معالم لم تطمس على العهد أيها  
عرفت بها رسم الرسول وعهده  
وربع له فيه مصلى ومسجد  
من الله نور يستضاء ويوقد  
أناها البلى فالآء منها تجدد  
وقبراً به واره فى التراب ملحد<sup>(١)</sup>

فهنا يقف الشاعر على هذه الأمكنة المقدسة، إنها ليست آثار الجاهلية وأطلال الحبيبة، بل هى ديار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيذكر (طيبة مدينة الرسول) ويكى الآثار ولكن شتان ما بين البكائين - بكاء الجاهلية والإسلام- وآثار هذا المكان بعيدة كل البعد عن آثار الجاهلية فهى ليست أماكن للحبيبة أو آثار الأهل الراحلين عنها بل هى آثار وأماكن واضحة المعالم شاخصة لا تغيرها صروف الزمان إنها شعلة النبوة وآثار المسجد التى تتوهج كلما مر عليها الزمان، وتلا فيها المسلمون آيات الذكر الحكيم، إنها أماكن الرسول تضيء نورا فى الأذهان وفى القلوب فرسومها باقية وآثارها متجددة فى كل وقت وحين.

ويأتى المكان فى شعر الخطيئة، ليعبر عن معاناة قاسية عاشها فى السجن وكان ذلك أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن هجا الزبرقان بن بدر، فترك ذلك المكان أثراً سيئاً فى نفسه، وما من سبيل إلا أن يرسل أبياتاً شعرية يستعطف فيها الخليفة، ويذكر بها حاله وحال أولاده ويلجأ أيضاً إلى وصف للمكان بأنه قعر مظلم:

ماذا تقول لأفراخ بنذى مرخ  
غيبت كاسبهم فى قعر مظلمة  
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر  
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

(١) ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: الأستاذ عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦م، ٦٠-٦١.

أنت الأمين الذى من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهى البشر<sup>(١)</sup>

فلاحظ الوصف المأساوى للسجن والذى انعكست آثاره على نفسيته وحاول جاهدا إظهار هذه المأساة من خلال وصفه، وليجد فيه منفذاً للخروج من هذا المأزق.

أما فى العصر الأموى فلم يكن أثر المكان أقل شأنًا فى الشعر من العصور التى قبله فهذا مالك بن الربيع أضناه البعد عن الأهل والأحبة وعصفت به رياح الغربة فذهب قائلاً:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة      بجنب الغضا أزعجى القلاص النواجيا  
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه      وليت الغضا ماشى الركاب لياليا  
لقد كان فى أهل الغضا لو دنا الغضا      مزار ولكن الغضا ليس دانيا<sup>(٢)</sup>

فهو متشوق لديار أهله وأحبته ويتمنى لو أنه يستطيع أن يأوى إليها، ويبت فيها ولو ليلة واحدة، يسوق الإبل شأنه شأن فتيان قبيلته ويلجأ إلى تكرار اسم (الغضا) محاولاً إظهار لوعة الشوق والحنين إليه.

والعربى تميز بحبه لأماكن البادية (الصحراء وما فيها) ويشعر فيها بحرية ((ويجد نفسه فى الصحراء، كما يجدها فى ربوع الماء والزرع، ووجوده هنا لا يتحقق بسبيل العيش والتجارة، بل فى تأكيد الذات إزاء المحيط الواسع المتناهي))<sup>(٣)</sup>.

وسر العلاقة ((بين الإنسان والمكان - من هذا المنحى - تظهر بوصفها علاقة

(١) ديوان الخطيئة، تحقيق: د. نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٩٥٨م، ٣٠٨.

(٢) شعراء أمويون، دراسة وتحقيق: د. نوري حمودي القيسي، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، ١/ ٤٢.

(٣) الرواية، والمكان، ياسين النصير، الموسوعة الصغيرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٦م، ١٢٠/٢.

جدلية بين المكان والحرية))<sup>(١)</sup> وتصبح العلاقة بينهما - الإنسان والمكان - قائمة على الألفة، وهذا ما وجدناه لدى ميسون بنت بحدل الكلبيّة<sup>(٢)</sup> زوج معاوية حين ضاقت بها الدنيا عندما نقلها زوجها من البادية إلى الشام، واتخذت من القصور الفخمة منزلاً لها بعد الصحراء، ولكن ما أن لبثت حتى أطلقت زفرات الحنين والأنين إلى المكان الذي نشأت فيه فقالت:

لبيت تخفقُ الأرواح فيه      أحبُّ إلى من قصر منيف  
ولبس عباءة وتقرّ عيني      أحبُّ إلى من نقر الدفوف  
خشونة عيشتي في البدو أشهى      إلى نفسي من العيش الظريف<sup>(٣)</sup>

فهي تألف البادية وتنفر من القصور ونعيمها وتحن إلى صعوبة عيشها في ذلك المكان وتفضله على عيش القصور والترف الذي فيها.

وتنعكس آثار المكان سلبيًا أو إيجابيًا على الشاعر، فألفة المكان وعدوانيته تتحقق بما يتركه من أثر في النفس<sup>(٤)</sup>. والسجن هو أكثر الأماكن عدائية، لأسباب معروفة، فهذا عبد الله بن عمر العرجي أحس بالضيق والحرمان من الحرية بعد أن زج به في السجن على يد محمد بن هشام<sup>(٥)</sup>، وآثار المكان ورهبته واضحة على نفسية الشاعر فذهب قائلاً:

(١) جماليات المكان، مجموعة من الباحثين، ٦٢.

(٢) هي ميسون بنت بحدل زوج معاوية بن أبي سفيان، وكانت بدوية ضاقت نفسها لما تسرى عليها، فعذها قال لها: أنت في ملك عظيم وما تدرين قدره وكنت قبل القيوم في العباءة، فقالت هذه الأبيات. ينظر: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠-١٠٩٣)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨١م، ٨/ ٥٠٦-٥٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ٨/ ٥٠٣-٥٠٤.

(٤) ينظر: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار القلم، القاهرة، (د.ت)، ٧٠.

(٥) ينظر: خبر الحادثة في الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد أ. على مهنا، سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦م، ١/ ٣٩٩.

أضاعونى وأى فتى أضاعوا  
وصبر عند معترك المنايا  
لـيوم كـريهة وسداد ثغـر  
أجرر فى الجوامع كل يوم  
وقد شرعت أسنتها بنحـرى  
كأنى لم أكن فيهم وسيطا  
فيا لله مظلمتى وصبرى  
ولم تك نسبتى فى آل عمرو<sup>(١)</sup>

إنه الإحساس بالضيق وتقلب الزمان به، وضيق المكان ووحشته جعله يفخر بنفسه حتى يتخلص مما هو فيه من حرمان وشدة وضنك وتقييد للحرية.

وإذا ما عدنا لشعر مالك بن الريب فسوف نجده يحدثنا عن تجربة السجن أيضاً وما قاساه فيه، فهو القائل:

أتلحقُ بالريبِ الرفاقُ ومالك  
بمكة فى سجنٍ يعنيه راقبه<sup>(٢)</sup>

فقوله: (فى سجن يعنيه راقبه) يعبر بصدق عن معاناة الشاعر من حارس السجن الذى سقاه سوء العذاب.

ويبقى السجن مكانا للرهبـة والخوف لدى الشاعر الأموى فهذا الفرزدق يقول:

فى محبسٍ يتردّى فيه دُوريب  
يُخشى على شديد الهولِ مرهوب<sup>(٣)</sup>

فالرهبـة الخوف والظلمة كلها من مكونات هذا المكان الذى ألم بنفسية الشاعر وعصف به فى مهاوى الخوف والحزن.

أما ألفـة المكان فهى متأتية من ألفـة ساكنيه، وهذا ما نجده واضح المعالم لدى شاعر الغزل العذرى جميل بثينة حين قال:

---

(١) الأغاني، ١/ ٣٩٩.  
(٢) شعراء أمويون، ١/ ٢٤.  
(٣) شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها، إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م، ١/ ٨٤.

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل  
يذكر فيها كل ربح مريضة  
إلى اليوم ينمى حبها ويزيدُ  
لها بالتلذذ القاويزات وثيد  
بوادى القرى إنى إذن لسعيد  
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسه<sup>(١)</sup>

فالرياح الهادئة تذكره ببثينة فيزداد شوقاً إليها ويتمنى أن تعود أيام  
الوصل واللقاء معها، كما يتمنى العيش ولو ليلة واحدة في وادى القرى مربع  
الأهل والأحبة، ويتودد إلى ذلك المكان الذى شهد أيام طفولتها وأيام الوصل  
بينها.

وقد يصد الشاعر عن المكان الذى ألفه (مكان الحبيبة) ويلجأ إلى الأماكن  
المجاورة لها، ليجد فى هذا الصدود ما يثير فى نفسه آلاماً وجدانية مبرحة<sup>(٢)</sup>، ومثل  
هذا نجد فى قول كثير عزة.

وإنى لئبثنى الحياءُ فأنثنى  
وأقعدُ والممشى إليك قريبُ  
وأتى بيوتاً حولكم لا أحبها  
وأكثرُ هجر البيت وهو جنيب<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان جميل بثينة، جمع وتحقيق وشرح: د. حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧م، ٥٦-٥٨.

(٢) ينظر: التمويه وأساليبه فى الغزل الأموي، د. عزمى الصالحى دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م، ٩٥.

(٣) ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ١٦٥.

(٤) كتبت أطروحة دكتوراه تحت عنوان (الزمان والمكان فى شعر العصر العباسى الأول ١٣٢-٢٣٢ هـ) للباحث غنى صكبان سلمان، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ٢٠٠١م. تناول فى الفصل الثانى من الباب الأول دراسات نظرية عن المكان. ينظر: ٥٦-٧١. وتناول فى الفصل الثانى من الباب الثانى أنواع المكان وخصائصه. ينظر ١٣٩-١٦٧.

فهو مرغم على أن يأتي المكان الذي لا يجبه، بسبب قاطني المكان - الحبيبة - التي تجعل منه إنساناً ملتصقاً بذلك المكان، لشدة تأثير الحب في نفسيته والذي جعل منه إنساناً آخر ينظر إلى بيتها نظرة الحب البعيد المنال.

وفي العصر العباسي<sup>(١)</sup> نجد أن الشاعر قد تعامل مع المكان بالموضوعية نفسها كما تم توظيف هذا العنصر في العمل الأدبي بشكل واضح لدى شعراء هذا العصر فهذا أبو تمام يقول:

أرومُ حمى العراق فتدرينى      رماة جوى لشجو ما تصيبُ  
وتشفقنى دمشق وساكنوها      ولا صدّد دمشق ولا قريبُ  
سقى الله البقاع فحيث راقبت      جبال الثلج رحبى والرحيبُ<sup>(١)</sup>

فراه يسترجع أكثر من بؤرة مكانية، وكل واحدة من هذه الأماكن يمثل نقطة ضغط على ذات الشاعر، فهو يحن إليها ويتشوق اشتياق المغترب عن بلده. وهذا الشوق والحنين لمثل هذه الأمكنة نجده أيضاً في الأبيات الشائعة الذكر حين قال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى      ما الحب إلا للحبيب الأول  
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى      وحينه أبداً لأول منزل<sup>(٢)</sup>

فالحب والمنزل أمران متساويان لدى الشاعر، وكما وجد دفء العاطفة والأمان في الحبيب الأول وجدها أيضاً في دار إقامته الأولى، ومن هنا تتبع خصوصية كل مكان كونه ترجمة لأحاسيس الشعراء.

(١) شرح ديوان أبي تمام، للصولي، دراسة وتحقيق: د.خلف رشيد نعمان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٧، ٣/٥٩٥-٥٩٦.

(٢) شرح ديوان أبي تمام للصولي، ٣/٤٥٩.

والمتنبي<sup>(١)</sup> نجده أيضاً يحن ويبكى على المكان الذى ألفه وتذكر فيه أيامه السالفة  
فهو القائل:

مررتُ على دار الحبيب فحممتُ جوادى وهل تشجو الجياد المعاهد  
وما تنكر الدهماء من رسم منزل سقتها ضريبُ الشول فيها الولائدُ<sup>(٢)</sup>

فهو يجعل من الإبل والجياد تشاركه الحنين لمثل تلك الأمكنة، ليظهر لنا توجعه  
والألم الذى يحس به جراء المرور بمثل هذه الأمكنة، وهو أسلوب شعري كثيراً ما  
اعتاد عليه الشعراء.

ونجد أيضاً أن المتنبي قد ((وقف على الرسوم والأطلال كما وقف غيره وذرف  
الدموع فى الربوع الخالية))<sup>(٣)</sup> وأخذ يقول:

دمعُ جرى ففضى فى الرِّبع ما وجبا لأهله وشفى آتى ولا كربا  
عجنا، فأذهب ما أبقى الفراق لنا من العقول وما ردَّ الذى ذهب  
سَقَيْتُهُ عبرات خللنها مطرا سوائلا من جفون ظننا سحبا<sup>(٤)</sup>

فهذا المكان قد زاد فى حزنه فراح يسكب عليه العبرات التى تشبه المطر فى  
انحدارها وتنهمر من جفونه كأنها سحب على تلك الدمن والآثار.

(١) كتبت أطروحة دكتوراه تحت عنوان (وحدة الزمان والمكان فى شعر أبى الطيب المتنبي) للباحث  
حيدر لازم مطلق، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٢. تناول فى الفصل الرابع وحدة الموضوع فى  
الزمان والمكان معرفاً بالمكان وأنواعه وخصائصه ودلالاته فى شعر هذا الشاعر الكبير. ينظر: ١٥٤ -  
٢١٦.

(٢) شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ٢، ١٩٣٨م، ٢/  
٣٩٢، المحممة، دون الصهيل، الدهماء: الفرس، الشول: النوق التى قل لبنها.

(٣) لغة الحب فى شعر المتنبي، تأليف الدكتور عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان  
، ط ١٩٨٣م، ١١٥،

(٤) شرح ديوان المتنبي، ١/ ٢٣٧

أما دموع أبي فراس الحمداني<sup>(١)</sup> على الأطلال فكانت مدرارة وشكلت لدى الشاعر حنيناً وشوقاً لا حدود له، ارتسم هذا الشوق في سجنه ووجد في تذكره لهذه الأماكن ما يطفئ نار الأسى التي التهمت في داخله فهو القائل:

أبتُ عبراته إلا انسكاباً      ونار ضلوعه إلا التهاها  
ومن حق الطلول على ألا      أغبَّ من الدموع لها سحاباً  
وما قصرت في تسأل ربع      ولكنى سألتُ فما أجاباً<sup>(٢)</sup>

فنظرة إلى هذا النص تكشف لنا أن الشاعر قد اتخذ من الأطلال منفذا عاطفياً، ليث معاناته وشكواه النفسية التي ألمت به في ذلك المكان المُعادى (السجن).

أما الشريف الرضي فهو يألف دار الحبيبة ويحن إليها، ليجد فيها عقب الماضي السعيد حيث يقول:

يا دار ما طربت إليك النوق      إلا وربك شائق ومشوق  
جاءتك تمرح في الأزمة والبرى      والزجر وردّ والسياط عليق  
وتحن ما وجد المسير كأنما      كل البلاد مهجر وعقيق  
دار تملكها الفراق فرقها      بالمحل من أسر الغمام طليق<sup>(٣)</sup>

فهو ينادى تلك الدار ويصف لنا حنين النوق إليها، وحقيقة الأمر هو وَصْفُ لحنين الشاعر ذاته، وجعل من حنين النوق تعظيماً ومبالغة، لينقل إلينا حنينه.

(١) كتب رسالة ماجستير تحت عنوان (الزمان والمكان في شعر أبي فراس الحمداني، للباحث ناظم محمد خلف، تناول في الفصل الثاني الواقع المكاني في شعر أبي فراس، ينظر: ٤٩-٧١. وفي الفصل الثالث تناول جدلية الارتباط بين الزمان والمكان. ينظر ٧٣-١٣٥.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتحقيق وتعليق: سامي الدهان، بيروت، ١٩٤٤، ١٢/٢.

(٣) ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م، ٤٩/٢.

وثمة شيء آخر في العصر العباسي، هو أنه عصر حافل بالأحداث السياسية والاجتماعية فكان لا بد أن تضع هذه الأحداث بصماتها على الشاعر العباسي كون الشاعر ابن بيته يتأثر ويؤثر بها، وهذا ما وجدناه لدى الشريف الرضي، إذ تحول المكان بالنسبة للشاعر إلى باعث معاناة قاسية فيرفض العيش والإقامة في دار الهوان<sup>(١)</sup>، وأصبحت بغداد بالنسبة له دار ظلم وذلك بعد أن تسلط عليها الأجنبي فيعزف عنها قائلاً:

ليلي ببغداد لا أقرُّه      كأنني فيه ناظرُ الرميد  
ينفر قومي كأن مقلته      تُشجُّ أجفانها على ضميد<sup>(٢)</sup>

وإلى هذه المعاناة القاسية والرفض للمكان ذهب الشريف الرضي إلى التذمر من دار الإقامة بعد الفتن والحروب التي أصابت بلاده ولهذا يقول:

ليس دارُ الزوراء دارُ مقام      وئراها حربُ ماء الغمام  
ليس فيها عيش قصيرٌ وساعا      تكُ فيها الطوال كالأعوام  
وإذا ما طلبتُ فيها دواءً      لسقامي فليس غير سقام<sup>(٣)</sup>

هذا الرفض والتذمر من المكان، وتحول نظرة الشاعر نحوه من أليفة إلى معادية، مردها إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت ببغداد في تلك الفترة وما أصابها من خراب ودمار انعكست آثارها سلباً على الشاعر فعزف عن دار إقامته وأصبح لا يطيق عيشها ولا يجد فيها غير السقام.

وصفوة القول إن المكان قد شكل حضوراً دائماً في الشعر العربي وعلى مر العصور

(١) ينظر: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م، ١١.

(٢) ديوان الشريف الرضي، ١/٣٠١.

(٣) ديوان الشريف المرتضى، حققه: رضيد الصفار، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م، ٣/٢٤٢.

الأدبية التي تناولناها، بل و كان باعثاً من براعت قول الشعر، وشكل خصوصية واضحة في الشعر، هذه الخصوصية للمكان جاءت نتيجة لارتباطه بكثير من الدلالات الاجتماعية والنفسية.